# نهضة أوربا

## في القرن الثاني عشر

## أساسها اللاهوتي ثم الفكري

تدرجاً وعلى مر العصور ، وضعت أوربا أساس حياة ثقافية خاصة بها . ولقد زودت الزراعة شعوب الغرب بفضلة من الرفاهية ، تحولت نزعة الى اجتناء ثمرات بعيدة عن مجرد الحاجات الموضعية . فنمت المدن ذوات الأسواق واتسعت لتبادل السلع الأهلية وتوزيع البضائع الكمالية المجلوبة من الشرق . ومع وجود أهل المدن وانتشار الرفاهية والمصالح المادية بدأ التطلع العقلي يحقق وجوده ، وأثبت ذاتيته ، بالنظر في العقائد السائدة ، والولع الروحي نحو الحكمة المفتقدة .

لقد بدأ تسارع الحياة الروحية بتأسيس دير كلوني Cluny العظيم في القرن العاشر ، فأدى الى الاصلاحات التي بدلت الكنيسة من نظام موضعي ، الى نظام بابوي شامل فيه عشرات من المؤسسات التي آلت الناس في ظلها متسعاً لسد حاجات التطلع العقلي والنفسي ، وكانت في العصور المظلمة نظاماً قام على دير هنا ودير هناك ، استغرقها ديريون انصرفوا الى المخطوطات القديمة يستمسقون في طياتها ، كلما سمحت لهم ظروف الفراغ من قطع أشجار الغابات أو زراعة الأرض

ضاعف ذلك من عدد أولئك الذين تملكت عليهم الشهوة العقلية ، كما هيأت البيئة لتدرج الميول الجديدة في الفكر . فنشأت ثقافة شعبية تبدت في أدب الغناء والقصص حتى غزت القصور الاقطاعية وبيوت الأثرياء من التجار في المدن . أضف الى هذا أن مجاوزة التوسع التي نعرفها باسم الحروب الصليبية ، كانت مبدأ احتكاك الكثيرين من أهل الغرب بالحضارات الشرقية الراقية ، لحضارة العرب والبربر ، كما كان غزو ثوات الصليبية الرابعة لمدينة القسطنطينية (١٢٠٣ — ١٢٠٤ ) أول تماس فعلي لرجالها بحضارة إغريقية ، وبالحري بحضارة الروم .

ولكن مهما كان لهذه الحوادث من قيمة وأهمية ، فانه خليق بنا أن نعترف انه ليس من احتكاك أو نظام ، كان السبب في بلوغ الشعوب الغربية حد الرشد ، بل كان السبب في ذلك نماء الجمية الأوربية في العصور الوسطى ، نماء مطرداً وان كان بطيئاً ، وخاصة في حياتها الاقتصادية . منذ بداءة القرن الثاني عشر وفي أثناء القرن الثالث عشر ، استطاع رجال أوربا الغربية

أن يقيموا حضارة فيها نظام وفيها ألفة وتجانس . واذا سقنا القول في محل العقائد والمعاملات ، فانما نشير بذلك عمة الى الحياة الثقافية في القرون الوسطى . وانه لما يثير العجب ان ذلك العصر قد شهد أول خطوة خطتها الشعوب التي تحكم الآن كرة الارض ، نحو تنشئة ما يقال «بجتوز » إنه «حضارة » أو «ثقافة» . ولن تقع على فترة ، حتى ولا على لحظة واحدة منذ نهضة القرن الثاني عشر حتى الآن ، يمكن أن يشار اليها فيقال إن قوى التطور في الغرب قد وقفت فلم تتابع سيرها ، أو أن النماء العقلي والاقتصادي قد تبدل فصار حياة سكون أو جمود في حياة تلك الشعوب، أشبه بذلك الذي شهد في حياة الصين والهند أو الشرق بوجه عام ، أحقاباً برمتها في التاريخ .

لقد عملت الطاقة البشرية ، كما عمل الذكاء الانساني منذ ذلك العصر ، فعدل وبدل ، وازاد وأربى من وراثات تلك الشعوب ، ثم تسارع ذلك فبلغ في هذا العصر أعظم مبالغة. ولا شك في أن هنالك آراء عامة وأخرى رسيسة من الآراء التي امتازت بها العصور الوسطى كما كان هناك وجهات من النظر ، ظلت جامدة نسبياً ، ومضت ثابتة قروناً عديدة . هذه الآراء والمثاليات ، هي بذاتها وفي الحق ، أساس النصرانية الحديثة ومتمها . ولقد ظل كثير منها رسيساً في معتقدات العديد الغالب من الناس حتى الجيل الفارط، ولقد قبل بعضها، فأخذ على انه من الأشياء الجوهرية في عصرنا هذا .

فاذا وقف الرجل الغربي اليوم موقف من ينظر الى العقل الاوربي في العصور الوسطى نظرة انه غريب عنه دخيل عليه ، فان ما وقع خلال الزمان منذ تلك العصور الى اليوم من الانقلابات والتغيرات وما تخللها من تعديلات وفقت بين مختلف نواحي الفكر ، لا يمكن أن تفهم حق الفهم إلا في ضوء الماضي وما فرط من عمر تلك الحضارة . والغالب أن أقوم طريق لتفهم حقيقة الآراء والعقائد ، أن يفقه الباحث انها ارتكاسات — reactions — برزت استجابة لعوامل خاصة .

أما وانا سوف نبدأ البحث بالقرن الثالث عشر ، فواجب علينا أن نصور كيف تبدت الحياة الانسانية لأهل ذلك العصر ، وماذا كان شعورهم تلقاءها . سوف نبين عما ظل ثابتاً مطرداً من مفصلات تلك الحياة وماتقوض منها وباد ، كما انا سوف نبين عن تلك المتكشفات المتتالية التي بدلت من حياة دنيا العصور الوسطى وخلقت منها دنيانا التي نعيش فيها .

قارن « أناتول فرانس » في كتابه «حديقة أبيقور» مبيناً الفرق بين دنيا العصور الوسطى ، ودنيانا الحديثة ، فقال :

لا شك يتصور شيء من الانفعال اذا أردنا أن نصور عقل الانسان في العصر القديم ، حيث اعتقد اعتقاداً لا يرقى اليه الشك أن الارض في مركز النظام الدنيوي ، وان كل الكواكب تدور من حولها .

فقد شعر تحت قدميه بأرواح الذين أصابتهم اللعنة يتقلبون في النار ألماً ، وربما سمع حسيس لهيبها وهو يرقى بين رأسه ، وشم ملء أنفه ، أدخنة الكبريت تنبعث من جهنم ، متلفة من مخازن صدق من بعيد . فإذا رفع رأسه إلى أعلا تطلع إلى الأفلاك الاثني عشر ، إلى فلك القمر وفيه ... ثم أفلاك القمر وعطارد والزهرة التي زارها دانتي في يوم جمعة الفريدة سنة ١٣٠٠ ، ثم أفلاك الشمس والمريخ والمشتري وزحل ، ثم القبة الزرقاء التي تعلق فيها النجوم كأنها المصابيح ، ومن خلف هذه ، يرى بعين عقله ، السماء التاسعة أو الفلك التاسع مستقر القديسين ، ثم المحرك الأول أو الفلك البلوري (١) ، ثم رأى النهاية المطهر (٢) مقام القديسين ، وإليه تتطلع نفسه بعد الموت ، إذ يمتلئ مكانه بماء لبيض ، كما لو كانت نفسه في طهر الطفل الوليد ، قد غسل بالتعميد ، وتطهر بزيت السر المقدس ، (٣) في ذلك العصر لم يكن لله من أولاد غير الإنسان ، أما بنية خلقه فقد تظهر بطريقة أقرب إلى الطاولة ، وفي صورة شعرية ، كأنها كاتدرائية (٤) عظيمة ، فإذا تصورنا الكون على ذلك ، أجزاءه بسيطة حتى إنه تخفيه في تكوينه وتختلف صوره وحركاته ، كأنه جملة ساعات مصورة تحركها آلات .

أما الآن فقد قوضنا الأفلاك الاثني عشر ، وكذلك الكواكب التي كان يولد الإنسان في ظلها سعيداً أو شقياً ، مشتري الحياة أو زحليها . أما القبة الصلبة التي هي السماء ، فقد تهشمت وتطايرت شظاياها في أعماق الفضاء ، وبذلك اخترقت العيون والأفكار أغوار الكون اللانهائية ، فلا نجد اليوم ذلك المطهر مستقر الصالحين والملائكة ، قائماً من خلف السيارات ، بل مئات الملايين من الشموس تجرجرها من الأقمار والتوابع ما لا تراه العين المجردة . وفي وسط تلك العوالم اللانهائية نجم ضئيل ، كأنه ذرة من غاز ، وأرضنا كأنها ذرة من طين .

الشموس تموت لأنها تولد ، إنها تولد وتموت إلى غير نهاية . والخلق ، بحكم أنه ناقص وبعيد عن الكمال ، لا بد من أن يتحوره التغير بغير انقطاع . إن الشموس تنطفئ ، فلا ندري أن نكون إذا كانت بنات الشمس هذه ، تبدأ دورتها على هذه الصورة ، حياة أخرى في صورة سيارات ، فتكون حياتها الجديدة حياة مفيدة مفعمة بالخير ، كما لا نقدر أن نقول ما إذا كانت السيارات قد تتحول فتصير شموساً تارة أخرى . كل ما نعرف أن السكون غير كائن ، لا في السماء ولا في الأرض ، وأن سنة العمل والجهد ، تحكم العوالم وتقدر مصايرها إلى ما لا نهاية .

هنالك شموس انطفأت أمام أعيننا ، وأخرى تومض بضعف كأنها لهب شمعة كادت تذهب ، أما السماوات ، التي خيل للناس أنها ثابتة لا تتغير ، فإنها لا تعرف شيئاً من معنى الأبدية ، إلا أبدية أنها مضمونة في مجرى الأشياء . The Garden of Epicurus, by Anatole France.

غير أن أهم ما يدور بأذهاننا عن ذلك الكون المركب في هيئة صندوق ، والذي تخيله عقل الإنسان المختلط في العصور الوسطى ، إنما هو الغاية الأساسية التي من أجلها وجد غاية أن يكون مسرحاً لتمثيل تلك المأساة التي هيأها الله لسلالة آدم . ومهما يكن من أمر معرفة الإنسان في العصور الوسطى وضبتها ، فإن الشك لم يتسرب إلى نفسه إزاء أمر واحد : هو أن الأرض والسماوات وكل الأشياء التي فيهن ، قد خلقت له حتى يحيي حياته ، ويصطنع فيها مصيره الأخير .

أما رواية ذلك الخلق ، والمناظر المثيرة التي وقعت فيه ، والصور التي عبرت بجلاء عما قام في ذهن الإنسان أنه سوف يقع ، فكانت أشياء معروفة لديه مروية في أسطورة أو قصة ، فملأت أفكاره وأفعمتها ، كما أفعمت صورها الكاتدرائيات العظمى ، نحتاً في الحجر أو تصويراً على الجدران .

(١) Primum Mobile or Crystalline (٢) Empeyrean (٣) Sacraments (٤) Cathedral

على أنك إذا أردت أن تعرف كيف فقه الرجل الوسط [illegible] حقيقة التاريخ ، وكيف أمل أن يكون مصير الانسان ، فان الفيلسوف « سنتيانا » يروي [illegible] في قالب طريف ، أخذاً من الصورة التي أثبتها الأسقف « بوسويه » في كتابه [illegible] في التاريخ العام [1] الذي ألفه في أواخر القرن السابع عشر ، واليك ما قال :

كان في البدء ، على ما تروي القصة اللاهوتية ، ملك سماوي [illegible] ذوو أجنحة من موسيقيين وأتوار [2] . وجد ذلك الملك من أزل الآزال [illegible] كان مصمماً خلال كل أزليته وعندما تأتي الساعة المناسبة ، أن تخلق كائنات زمانية [3] [illegible] أن تكون صورة ناقصة منه بنسب متفاوتة . هذه الكائنات ، التي كان الانسان أعظمها [illegible] بدأت سيرتها الأولى سنة ٤٠٠٤ ق . م . وانها سوف تعيش زمناً غير محدود . ولكن يحتمل أن الاتساق الزماني سوف لا ينفصم حتى تجيء سنة ٤٠٠٤ بعد الميلاد .

إن هذه المأساة قد بدأت ، وسوف تختم ، بصورتين [illegible] .

فأول شيء ، وطوعاً لكلمة الله ، أخذت الشمس والقمر [illegible] مع ما يتبعها من نبات وحيوان ، مراكزها المقسوم لها ، وطفرت الطبيعة إلى [illegible] ما فيها من السنن والقوانين ، وخلق الله أول انسان من طين ، وخلق أول امرأة من [illegible] أضلاعه ، عندما كان في نوم عميق ووضع الاثنين في حديقة حيث كان في مستطاعهما أن [illegible] الجنة بعد الظهيرة ، وحيث كانا يتنزهان في رطوبة المساء . وجعلهما يتبوآن منها حيث يشاءان وأن يأكلا من ثمارها التي غرسها فيها ، وأمرهما أن لا يقربا شجرة معينة ، ولكنهما بتغرير شيطان ، انتهكا ذلك الأمر ، فأخرجا من هذا الفردوس تتبعهما لعنة الله [illegible] يعيش بعرق جبينه ، والمرأة تحمل وتلد وتتألم . والاولاد الذين يلدونهما يرثون [illegible] أن يستقروا في رحم الأم تلك الطبائع المسنة التي اكتسبها أبواهم إثماً ولدوا ليحيطوا [illegible] والفوضى ، حيثما يكونون وأينما يكونون ، في أنفسهم ، وفيما حولهم [illegible] .

ولكن الله ، حذر أن يندثر ذلك العمل الذي عملت يداه [illegible] أن يستنقذ بعض بني آدم ويردهم الى الحياة الطبيعية . على أن هذا الاستنقاذ [illegible] في النهاية مع أحفاد حواء ، الذين قدر لهم أن تطأ أقدامهم رأس الأفعى [4] . [illegible] الاستنقاذ كان سوف يقع بحوادث جزئية سبقت في علم الله . فكان لا بد من أن يستنقذ نوح من الطوفان ، ولوط من سدوم ، واسحق من التضحية ، وموسى من مصر ، والأمين اليهود من بابل ، وكذلك كل الذين يؤمنون بفساد الكفر والوثنية .

(1) Discourse on Universal History.

(2) الاتوار : الرسل ، واحدها تور : رسول (3) محدثة لا أزلية ولا أبدية

(4) التي تلبست في صورة الشيطان وأغرت حواء وآدم على الأكل من الشجرة المحرمة .

هنالك نبالة واحدة أخرجت من زمرة الانسانية منذ البداءة تحتوي حقيقة على كلمة الله مشيدة بذكره مردية بحكمته ، محببة لوصاياه ، مذكرة بوعوده ، في حين أن بقية الانسانية ، قد بعدت ، فسيطرت عليها نقائصها الطبيعية ورذائلها النفسية فمضت تنحدر شيئاً بعد شيء في غور الجرائم والمنكرات .

ان الطوفان الذي أرسل ليستلهم من هذه الحماقات لم يفد فيهم شيئاً . جدد الطوفان الدنيا وبرزت الأرض بعده من بحر الماء مطهرة ، ولكن هذا التجديد قد خلف من ورائه وبصورة أزلية ، إشارات من الانتقام الالهي . ففي الزمن الذي حدث فيه الطوفان كانت الدنيا والمخلوقات في خشونة تقاوم فواعل الطبيعة ، ولكن الله قد أمر أن يعم هذا الطوفان الأرض ويغطيها ، ويكون مكثه عليها ، فاضت كل المصارات ، فتشبع الهواء بالماء ، فنشأت بذلك زوائل جديدة ، واستحدثت بواعث أخرى من الفساد والفوضى ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل ان صورة الخلق الأصلي أصابها ضعف ووهن ، فأخذت الحياة الانسانية تتناقص في مداها ، بعد أن كانت حياة الفرد قد تبلغ ألف عام . وكذلك فقدت الأعشاب والجذور خصائصها الأولى وتأثيراتها الفطرية ، فبدل طعام الانسان بطعام أخشن وأصلب ، وأكل لحم الحيوان .

خيم الموت على الحياة ، وشعر الناس بأنهم مأخوذين بالأيدي والأذقان . ولكنهم لم يزدادوا على مر الأيام إلا شقاوة وعناداً ، فكان من الطبيعي أن تلم بهم على الأيام شقاوات جديدة . ولقد قدر عليهم تقييد طعامهم أن ينحدروا الى الفساد والتكسر ، ومع امعانهم في هذا وتمكن الضعف في نفوسهم ، زادوا جرماً وتعطشاً للدماء .

من ثم كان في الوجود روحان ، أو فئتان ، أو كما قال القديس أوغسطين ، مدينتان ، في هذه الدنيا : مدينة الشيطان ، وهي مهما بلغت من الفن أو الحرب أو الفلسفة ، فانها مدينة متكسة كافرة بعيدة عن التقوى . ان مسراتها ليست أكثر من قناع يحجب حقيقتها ، وجمالها طلاء كاذب . انها ملعونة في عين الرب ، كما هي ملعونة في عين التقي لما فيها من غرور وقساوة ونقاصة منبثة في تضاعيفها ، وجهلها بكل ما ينبغي أن يعرف عما يؤهل بالانسان الى الخلود والحياة الأبدية .

الى جانب هذه المدينة كانت مدينة الله ، التي وعد بها أرواح أولئك الذين قدر لهم الخلاص . كانت مفقودة في ذلك الشبه الذي صورنا به مدينة الشيطان ، أو كانت على الأقل غير مستبانة إلا لكبرائها . هي مدينة مهما بلغ من استخفائها وتواضعها لأهل الأرض ، فان الموعودين بها وقاطنيها وأصولها الأولى ، ثابتة في اللانهاية . عن وعد بهذه المدينة البطارقة والأنبياء ، أولئك الذين ظلوا طوال أعمارهم قانتين صاغين الى تلك الايحاءات التي إن ظهرت

لم أول الأمر مدونة بضباب البداية ، فقد انتظروا بصبر وجلد الخلاص الأكبر الذي لا بدّ ان يأتيهم يوماً مّا . من أهل هذه المدينة أولئك المجوس الذين تتبعوا تنقل النجم حتى استقر فوق الحظيرة في بيت لحم ، وسمعان الذي ترقع خلاص بني اسرائيل ، ويوحنا المعمدان الذي توقع مثل ذلك وشق طريقه الى الحق قويماً مستقيماً ، وبطرس الذي لم يستشف ألوهية المسيح من قوى لحمه ودمه ، وإنما فاض الآب بها عليه من السماء . ذلك بأن الخلاص لم يأت إلا بعد أن تهيأ له الزمان ، وانه ليس كما يقول اليهود الشهوانيون ، عبارة عن فعل دنيوي استردت به الأرض شبابها وقوتها ، بل حملت بتجسّد ابن الله في مريم العذراء ، وموته على الصليب ، وهبوطه الى جهنم ، ثم رفعه الى السماء في اليوم الثالث من موته ، على ما تقول الأناجيل . والى هذه المدينة أيضاً ينتسب أولئك الذين يؤمنون برسالة المسيح وحقيقتها وأثرها ، والذين يلتجئون الى فضله ويستمطرون هدايته ، ويتبعون وصاياه بكراهة هذه الدنيا والزهد فيها .

ليس التاريخ في حقيقته وماهيته إلاّ رواية الصراع الهائل الذي قام بين تينك المدينتين ورمز لها بفضيلتين : إحداهما طبيعية ، والأخرى فوقطبيعية . أو هما بالايجاز فضيلة الشهادة ، وفضيلة الغيب . أو هما فلسفتان : إحداهما عقلية ، والأخرى وحيية . هما ضربان من الجمال : أحدهما جسداني ، والآخر روحاني . أو جلالتان : إحداهما زمانية ، والأخرى أبدية ، أو نظامان أحدهما الدنيا ، والآخر الكنيسة .

المدينتان مختلفتان كل الاختلاف متنابذتان كل التنابذ ، أجنبيتان في أساسهما ، إحداهما من الأخرى ، برغم ما قد يلوح بينهما من الترابط أو التفاهم بعض الأحيان .

ستظلان متنابذتين متجالدتين أزماناً بعد أزمان ، حتى يأتي يوم الحصاد . وما يوم الحصاد ذاك إلاّ كشل اليوم الذي تنتقى فيه الحنطة والشيلم على اقتسام الأرض ، فينبت كل منهما في مكان يقسم له ، فيتفاديان بعد طول الصراع ، على اقتسام الارض .

أما أولئك الذين اعتقدوا أن أشياء الدين إنما هي خيالية ولا حقيقة لها ، فيرون الله يوم الحساب ، وقد أخذتهم الرجفة ، هابطاً من سحاب السماء ، والملائكة ينفخون في الصور ، وقد خرج الناس من قبورهم كأنهم جراد منتشر ، ليلقى كل منهم جزاء ما عمل ، فالناجون يدخلون في ملكوت الله ونعيمه ، تحف بهم حاشية ترتل الأناشيد حتى يعلوا الى عالم كله ضياء ، في حين يكون الذين أصابتهم اللعنة يتضورون ألماً ، صارخين صاخبين ، منكسين في صور وحوش كريهة المنظر شائهة الوجوه . تلفحهم نار لواحة للبشر ، لا تبقي ولا تذر

المدينتان في تناقض وتضاد ، في الحقيقة وفي الجوهر ، ولهذا فلا بدّ من أن تنفصلا في النهاية ، ولا بدّ لكل منهما أن تحمل ثمراتها الطبيعية تامّة من حقيقتها .